دوافع اغتراب الذات
في شعر ابن شُهيد الاندلسي

ا.م.د علي مطشر نعيمة
الباحث أماني خزعل غضبان
كلية التربية للعلوم الانسانية - قسم اللغة العربية
جامعة البصرة

ملخص البحث :
الاغتراب شعور نفسي ملازم للإنســـــــان ،يظهر إذا ما توفرت له الأسباب والعوامل ، فحين تصطدم الذات بواقع غير ملائم لحياتها ورغائبها او يتناقض مع ما تريد الوصول اليه ، تشعر بالحزن والالم ممّا يحيل بها إلى الوحدة والاغتراب. لذلك شكل الاغتراب جزءاً من حياة ابن شُهيد بفعل دوافع شخصية تمثلت بعاهة الصمم ولون بشرته السوداء ومرضه واخرى اجتماعية تمثلت بكثرة الحاسدين من حوله وتجربة السجن التي مرَّ بها ،يسعى هذا البحث للكشف عن النوازع الداخلية لذات ابن شُهيد والوقوف على المستور منها.

المقدمة :
تتجلى في أدب ابن شُهيد الأندلسي صورة لـــــــذاته وهي تعيش حالة اغتراب بفعل عوامل شخصية خاصة تمثلت بعاهة الصمم ولون بشرته السوداء فهذان العـــــاملان قد شكلا عاملاً نفسانيا أدى به إلى الانطواء على نفســـــــه ،فضلاً عن مرضه الخطير الذي أُصيب به وهو في مرحلة الشـــــباب والقوة فكان مصدراً لقلقه وتوتره إلى جنب التحول الكبير في حياته من حياة العز والغنى إلى الفقر والذل بعد أنْ فقد مجد ابائه وانهيار الأسرة العامرية

وهناك عوامل اجتماعية كانت وراء ظاهرة الاغتراب في أدب ابن شُهيد تمثلت بعاملين مهمين كانا لهما أثر كبير في ذات الشاعر وأدبه وهما: كثرة الحاسدين والحاقدين من حوله فعاش حياة قلقة مخيفة بين جماعات تدّعي المحبة والصداقة ، أما العامل الاجتماعي الثاني فتمثل بتجربة السجن فقد جسّدت هذه التجربة القهر السياسي والاجتماعي معـــاً في ذات ابن شُهيد .

يسعى هذا البحث إلى رصد هذهِ العوامل والوقوف عندها والكشف عن طبيعتها وتأثيرها في الشاعر في مبحثين يسبقها مدخل يوضح مفهوم الاغتراب.

المدخل :

الاغتراب حالة شعورية تسيطر على الذات الإنسانية بسبب اضطراب علاقتها بمحيطها الإنساني فتعيش حالة أقرب إلى الضياع والعزلة والوحدة، فالاغتراب يتصل بالاضطرابات العقلية والنفسية التي تنتاب الفرد، ويتعلق كذلك بفتور علاقة الذات بالآخرين أو وصول تلك العلاقة إلى مرحلة الجفاء أو الانقطاع .[١]

فالإنسان يكون اجتماعيا بطبيعته التي فُطِرَ عليها واكتسبها من محيطه، يرغب في العيش وسط مجموعة من الناس تجسدُ في ذاته كما ً من المشاعر المكللة بالانتماء الروحي والجسدي لتلك الجماعة ناتجة عن هذا الانتماء أنواع مختلفة ومتنوعة من العلاقات ، ولكن حين يُسيئ أحد أطراف تلك العلاقات تؤثر سلباً في الطرفين فينتجُ عنها شعور بالاغتراب والانفصال عن المجتمع .

فالاغتراب حصيلة اضطرابات تجعل الفرد غير قادر على إقامة علاقات إنسانية مع محيطه ممّا يشعره بالعزلة النفسية عن ذلك المحيط وأنه غريب عن الذوات الأخرى في محيطه الإنساني.[٢]

أن الفرد مهما بلغ قربه من الآخرين وشدة اتصاله بهم فإنّه لابد أن تكون هناك فجوات لا يمكن تخطيها أو التخلص منها، فمجيء الإنسان إلى هذه الحياة وحيداً، وأنّه سيخرج منها أيضاً وحيداً هما الفكرة المسيطرة على فكره ممّا يجعله يشعر بما يُسمّى بالانفرادية أو الفردانية.[٣]

فانتماء الفرد إلى الجماعة هي الحاجة الأولى والأساسية التي يحاول جاهداً إشباعها وسدّها من خلال التكيف معهم والانضمام إليهم تحت مجموعة من القوانين الاجتماعية، ولكن عدم ملاءمة هذه القوانين مع ذوات الافراد المنتمية تؤدي إلى الصراعات والخلافات التي تُؤجّج مشاعر العزلة والاغتراب النفسي عن المجتمع. فحقق حالة من الانفصال بين الذات والآخرين ممّا يعني دخول الذات عالم اللا انتماء.[٤] فالاغتراب حالة مأساوية يعيشها الفرد تولّدُ في ذاته إحساساً بالغربة اتجاه مجتمعه، وهذه الحالة تؤثر سلباً في صاحبها، فيعيشُ وحيداً منعزلاً عمن حوله، وسط أمواج من القلق والحزن والاكتئاب تتلاطم في ذاته فتجعله يعيش حالة من التوترِ والضياع قد تصل إلى الانتحار.

وقد يُتج الشعور بالاغتراب سلوكا إيجابياً عندما يقوّي في الذات العزيمة والإصرار على المواجه والتحدي فيكون عندها الاغتراب مثمراً ومؤشراً على الجانب السوي من الشخصية.[٥]

فهناك علاقة بين الإبداع وظاهرة الاغتراب، اذ يكون الاغتراب احياناً دافعاً نحو الإبداع والتألق.[٦]

إنَّ الاغتراب شعور نفسي قد يدفع الذات إلى الإحباط فتعيش حالة العزلة عن الآخرين أو تتدفعها إلى الإبداع في محاولة للتخفيف من وطأة الانعزال الذي تعيشه الذات المغتربة عن محيطها وفي الحالة الثانية يكون الاغتراب دافعاً نحو الإبداع ممّا يضفي على الذات شعوراً بالراحة والاطمئنان.

مهما تكن الذات منتمية إلى محيطها الاجتماعي فانها تتأثر بعوامل متباينة تجعلها في حالة انفصال عن ذلك المحيط، من هذه العوامل ما يعود إلى الذات نفسها ، ومنها ما يتعلق بالواقع الاجتماعي الذي تعيشه الذات ، وهكذا كانت ذات ابن شُهيد تنقاد وراء مسبّبات تفصلها عن واقعها لتعيش حالة الاغتراب، ويمكن تقسيم دوافع اغتراب الذات عند ابن شُهيد على نوعين ، هما : الدوافع الشخصية والدوافع الاجتماعية.

المبحث الأول: (**الدوافع الشخصية**)

أنَّ أول دوافع الاغتراب عند ابن شُهيد إصابته بالصم الذي شكل حاجزاً بينه وبين من حوله، وكان أيضاً سبباً في حرمانه من كثير من المناصب السياسية التي كان يتطلع إليها وخصوصاً انه ينتمي إلى أسرة شغلت كثيراً من المناصب السياسية " ولابُدَّ أن صممه هذا كان عاملاً نفسانياً أدى به إلى انطوائه على نفسه".[٧]لأنَّ مظهر الإنسان وهيئته هما السمتان اللتان يكوّن من خلالهما مفهومه عن ذاته ، وكذلك مفهوم الناس عنه.

أنَّ الشاعر الاندلسي قد أدرك أهمية هذا الجانب المتمثل بعلاقة الجسد بالذات، فهما شيئان متلازمان فالبدن يكون في غربة بلا روح وكذلك الروح تعيش الغربة عندما يسلب منها البدن. [٨] وهذا ما شعر به ابن شُهيد حين قارن نفسه بالجاحظ بقوله: " فلا يخلو في هذا إمّا أنْ يكون مُقصّراً عن الكتابة وجمْع أدوتها ، أو يكون ساقط الهمّة ، أو يكون إفراط جحوظ عينيه قعد به عنها ، كما قصّر بي أنا فيها ثقل سمعي ، وبأبي القاسم ورم أنفه". [٩]

فهذهِ العاهة كانت بمثابة الفجوة التي استُغلت من مبغضيه وحاسديه للتندر به من خلالها ، فضلاً عن عاهته أيضاً كان يعاني من لون بشرته فقد كان رجلاً اطلس ، يقول: " فتبسمَّ إليَّ وقال: أهكذا أنت يا أطلسْ ، تركبُ لكلِّ نهْجه ، وتعِجُّ إليه عجّه؟ فقلتُ: الذئبُ أطلس ، وإنَّ التّيْسَ ماعلمْت!" [١٠]

ومن أجل تفوق الذات على على خصومها ، ذهبت تبحث توازنٍ نفسي يبحث في داخلها شعوراً بالرضا والتفوق ، فاختار لنفسه شخصية نافذة تمثله في عالم الخيال ألا وهي (فاتك بن الصعقب) الذي حرص على وصفه بالحسن والجمال.[١١]، يقول:[١٢]" وكان بالحضْرةِ فتًى حَسنَ البِزَّة"

إنَّ الاغتراب شعورٌ خفي يسكن في أحشاء الذات الإنسانية ، فينشر الظلام بين أركانها ، فيدفع بها نحو العزلة والوحدة ، وهذا الشعور قد لازم ذات ابن شُهيد بشكل خاص في المرحلة الأخيرة من حياته وهي مرحلة المرض وصولاً إلى الموت ،

وهذا هو الدافع الشخصي الثاني لاغتراب ابن شُهيد ، لقد كان هاجس الموت عندهُ مصدراً للتوتر والقلق وأكثر مازاد عليه ماكان يعانيه من أوجاع قد تفوق قدرة تحمل الذات الإنسانية لها إلى أنْ وصل به الحال إلى الانتحار ، يقول: (١٣)

أَنوحُ على نَفْسي وأَندبُ نُبلَهَا إذا أنا في الضَّرَّاءِ أَزمعتُ قتلَهَا

فهو قد اعطى سبباً يفسر فيه عزيمته على الانتحار إذا أنا في الضَّرَّاء...، فأي اغتراب قد وصل إليه حتى أراد قتل نفسه؟ لقد اراد أن يتخلص من حياته التي أصبحت لا طعم لها ولا رائحة ولا لون، فهي مليئة بالألم والحسرة ، فقد عرفنا أنه أُصيب بالشلل النصفي الذي أقعده في الفراش وأصبح لا يستطيع التحرك ، فهذهِ الحالة الشعورية تكون من أصعب الحالات التي قد تمر بها الذات ، فكيف الحال بالنسبة لشاعر كابن شُهيد فضلا عن أنّه كان في عمر الشباب لم يتجاوز الأربعين عاماً ، فهذهِ كانت بالنسبة له صدمة نفسية قد قطعت حبال الأمل والتطلع إلى المستقبل ، يقول: (١٤)

هو الموْتُ لم يُعْرفْ بأجْراس خاطبٍ بَليغٍ ، ولم يُعطفْ بأنْفاس شاعرِ

ومما زاد في معاناة ابن شُهيد اعتماده على شخص آخر في الذهاب إلى قضاء حاجته فهذا قد يجعله يشعر بالملل والخوف من ملل الأخرين منه واستثقاله عليهم يقول : (١٥)

أَظلُّ قعيد الدّار تجْنُبَني العصا على ضَعْف ساقٍ أَوْهَن السُّقْم رجلَهَا

وأَنْعى خسيساتِ ابْنِ آدم عاملاً براحةِ طِفْلٍ أَحكم الضُرُّ نَصْلَهَا

إنَّ أجواء الحزن واليأس والوحدة لم تمنع الذات المغتربة من محاولة تهدئة ذاتها وتسليتها عبر محاولة بث روح الأمل والحياة ، فأخذ يتخيل أنَّ هناك أصدقاء وأحباباً سوف يبكون عليه ويتذكرونه بعد موته ، قال ابن شُهيد: (١٦)

سَقَى اللهُ فتْيـــاناً كأنَّ وُجُوهَهُمْ وُجُوهُ مصابيح النُّجومُ الزَّواهرِ

إذا ذكرُوني والثَّرى فوْق أعْظُمي بكوا بعُيُونٍ كالسَّحابِ المواطرِ

يقولُونَ: قد أَوْدَى أَبوعـامرِ العُلا أَقلَّوا فقدماً ماتَ آباءُ عامـــرِ

وما يزيد الذات اغتراباً سماعه خبر موت أقرب الأصدقاء وهو أبوجعفر اللمائي ، فبموته مات الأمل الذي كان يدب في ذات ابن شُهيد ، فيقول: (١٧)

وبتُّ فَرْداً أُنـــاجي مُقْلتي شَغَفاً كأَنَّني في نُقُوبِ الدار جنّيُّ
لاعِشْتُ إنْ مُتَّ لي ياواحدي أبداً وموتنا واحدٌ لاشـــكَّ مرئيُّ
إنَّ الكرِيمَ إذا مامـــات صاحِبُه أَوْدى بهِ الوجدُ والثُّكلُ الطّبيعيَّ

فبموت صديقه مات الوصال الذي كان يرتجيه منه فاصبح وحيداً في الدار ، وهذا دليل على قلة أصدقائه في مرحلة مرضه وقوله (ياوحدي) اشارة الى تغرب الذات ووحدتها ، يقول: (١٨)

زادَ البلاءُ على نَفْسي فأعْدمها صَبْري ، فصبري عليك اليْومَ وحْشي
حتى أهمَّ بقتلي كُلَّ داجـــيةٍ ياقوْم هـــــــل رامَ هذا قَبلُ إنسيُّ؟

والدافع الثالث الذي فرض شعور الاغتراب على ذات ابن شُهيد التحوّل المهول في حياته بعد أن فقد مجد آبائه بسبب أفول نجم الأسرة العامرية فكان هذا اشبه بالصدمة النفسية التي أصابته فأثرت في حياته ، فتحوله من حياة العز والنعيم إلى الفقر والذل و والشقاء كان ذا أثر بعيد في ذاته وخاصة بعد ما عرفنا أنَّ شاعرنا كثير الحساسية منذ الطفولة ، فأنه لم ينسَ حياة العز والجاه ، لذلك ظل متعلقاً بها ، ويسعى إلى الحصول على المناصب السياسية ، فأخذ يمدح الأمراء في محاولة يائسة لتبديد مشاعر الاغتراب والحصول على مكسب سياسي يحقق للذات شيئاً من تطلعاتها ، ففي قوله يمدح يحيى المعتلي : (١٩)

إنَّي امْرُؤُ لعبُ الزَّمانَ بهمّتـــــي وسُقيتُ من كأس الخُطُوب دهاقَهَا
وكبوتُ طِرفاً في العُلا فاستضْحكَتْ حُمرُ الأَنام فما تريمُ نِـــــهاقَهَا

لقد حققت الذات بعض طموحها عندما تسنَّمَ ابن شُهيد منصب الوزارة في حكم عبد الرحمن المستظهر إلا أنَّ ذلك لم يدم اكثر من سبعة واربعين يوماً ، ولذلك لخروج أهل قرطبة على المستظهر فجردهُ من السلطة ونصّبوا غيره الذي أمر بقتل

المستظهر وسجن ابن شُهيد فهذا ولّد في قلب ابن شُهيد مشاعر الخوف فهرب إلى ملقة والتجأ إلى يحيى بن حمود (المعتلي).[٢٠]

وقد جسّد ابن شُهيد مشاعر الخوف والخيبة في هذهِ المرحلة من حياته قائلاً: [٢١].

أَرى أَعْيناً ترنُو إليَّ كأنَّمـــا تُساورُ منها جانبـــــيَّ أراقمُ
أدورُ فلا أعتامُ غير محاربٍ وأَسْعى فلا أَلقى امرءاً لي يسالِمُ

تستشعر الذات أنَّ هناك أعيناً تراقبها وتتربص بها ، مما جعلها كثيرة القلق والتشرد ، لاتشعر بالأمان والاستقرار ، لذلك اصبحت تتخبط على ابواب الوزراء والخلفاء تبحث عن مأوى يقيها شر أعدائها ، فهذا الشعور جعلها تعيش حياة قلقة متذبذة تعاني ألم الاغتراب.

فتخرج آه حائرة قلقة تجسدُ معنى التيه والحسرة لتصور ذاتاً منشطرة مضطربة تحمل بين أنياط قلبها الحزن والألم محاولة التستر على تلك المشاعر وأخفائها لكي لايتشمت بها من يراقبها ويتمنى سقوطها ، قال ابن شُهيد في القصيدة نفسها:

ولّما فشا بالدَّمع منْ سرَّ وجْدنـا إلى كاشحينا ما القلوبُ كـــواتمُ
أَمرْنا بإمساكِ الدُّموعِ جُفُوننـــا ليشجى بما تطوى عَذُولٌ ولائِمُ
فظلَّتْ دُمُوعُ العَينِ حيْرى كأنَّها خلالَ مآقينـــــــا لآل توائمِ
أَبى دَمْعُنا يجري مخـافةَ شامتٍ فنمظَّهُ بين المحاـــــجرِ ناظِمُ

لقد تقاسمت ذات ابن شُهيد دوافع شخصية فرضت عليها شعوراً بالاغتراب لم تستطع التخلص منه في كثير من الاحيان فكانت تنقاد إليه باستسلام يوحي غالباً بانكسار الذات وضعفها أمام دوافع اغتربها الذاتي.

المبحث الثاني: (**الدوافع الاجتماعية**)

إنَّ علاقة الذات وتفاعلها مع محيطها تحكمها سلسلة من القيم والعادات الاجتماعية ، فتكوّن الذات علاقات صداقة مع بعض طبقات المجتمع ، وبما أنَّ ابن شُهيد ينتمي إلى طبقة الأدباء فقد كانت له علاقات عدّة تتراوح بين علاقات ودّية وغير ودّية ، والأخيرة ناتجة عن شعورهِ بالاغتراب.

فإن أشدَّ مايبعث على الألم والحيف والمرارة إحساس الذات بالاغتراب بين أخرين تتفق معهم في اللغة والعادات والتقاليد. (٢٢)

لقد حقّق ابن شُهيد تفوقاً ادبياً واضحاً على أقرانه ، وحصل على مكانهَ مرموقة يسعى كل أديب الوصول إليها ، ممّا أجّج مشاعر الغيرة والحسد عند الأشخاص المقربين منه ، فأخذوا يترصدون له ويعدّون له الزلات ، وهذا ماأشعره بالحزن والألم فكل من كان يعتقد أنه صديقه كشفته الأيام والمواقف بأنّه عدو في هئية صديق ، فشعر بالاغتراب بينهم ، و قال ابن شُهيد: (٢٣)

ومكانٍ عازبٍ مِن جيرةٍ أصـــــدقاءٍ وهُم عينُ العدا

إنَّ اغتراب الذات بين كثير من الاصدقاء حالة اغترابية أكثر مأساوية من اغتراب الذات النفسي ، لأنَّها تسد أبواب التضامن الروحي والأخوي.(٢٤)

وأصعب حالات الاغتراب التي واجهها ابن شُهيد هي تلك التي تأتي من صديق قد جاش صدره بالحقد والحسد ، قال ابن شُهيد: (٢٥)

وبُلّغتُ أَ قوماً تجيشُ صَـــدَورهُمْ عليَّ ، وإني منـــهمُ فارغُ الصَّدرِ

أَصاخوا إلى قَوْلي فاسْمَعْتُ مُعْجزاً وغاصُوا على سرى فأياهُمُ أمري

فتوظيفه الفعل (تجيش) فيه تكثيف للمعنى وإظهار عمق الحالة التي وصل إليها حساده حتى جاشت صدورهم غلة وحقداً ، ولكنه في المقابل كان منهم فارغ الصدر ، وكانّه بذلك لايهتم لكلام أو رأي أحد ، فيعزلُ نفسه عنهم ، فغاب شعورهِ بالانتماء إليهم ، وحلَّ محله شعور بالعزلة والاغتراب وقال في موضع اخر (٢٦)

وَلكَنَّني خانَـــني مَعْشَـــري ورُدْتُ يَفاعـــاً وبيـلَ المَرادِ

وهل ضَرَبَ السّيفُ مِنَ غيرِ كفٍّ؟ وهل ثَبُتَ الرَّأْسُ في غيرِ هادِ

فخيانة الصديق موقف تُحار الذات في فك شفراته ومعرفة أسبابه ، فتبقى دائمة السؤال لنفسها هل هو سوء الحظ ام البلاء؟ ، وهل هو بسبب شرف الطبع أو نبل النفس ؟ ، أم هو ما يفعله الحسد بصاحبه ويحاول أن ينتقم ويشوه سمعة غيرهِ. (٢٧)

فها هو يشكو لبغلة أبي عيسى ما فعله الأحبة به " فقالت : م أبقت الأيامُ منك؟ قلت : ما ترينَ. فقالت : شبَّ عمرٌو عن الطّوق . فما فعل الأحبّةُ بعدي ، أهم على العهد ؟ قلتُ : شبَّ الغِلمان، وشاخ الفتْيان، وتنكرّتِ الخلاَّن ، ومن إخوانكِ من بَلَغَ الإمارة ، وانتهى إلى الوزارة. فتنفّست الصُّعداء ، وقالت: سقاهم اللهُ سَبَلَ العهد ، وإن حالوا عن العَهْد ، ونسُوا أيْامَ الوُدّ" (٢٨)

وتصل حالة الاغتراب عند الذات حدّاً تفضّل فيه الرحلة عن المكان الذي تعيش فيه اغتراباً روحياً واجتماعياً عن أهله ، وهذا مؤشر على صراع نفسي حاد تعيشه ذات ابن شُهيد ، لانه لم يغادر موطنه حتى وفاته ، قال ابن شُهيد: (٢٩)

وقالت النَّفسُ لّما أَن خلوتُ بهـا أشكو إليها الهوى خلواً من النَّعم

حتّام أَنتَ على الضَّرَّاءِ مُضْـطجٌ مُعرَّسٌ في ديار الظُّلْم والظَّـلمِ

وفي السُّرى لك لو أزمعت مُرْتَجلاً بُرْءٌ في الشّوقِ أو بُرْءٌ من العدمِ

وينكشف لدى الذات الإحساس بالاغتراب ليصل الى درجة أنّه يحس كاللقيط بينهم ، وهذا دليل على إحساسه بالغربة والاغتراب في الوقت نفسه ، يقول: (٣٠)

وكأنّنـــي فيهمْ لقـــيـــ طٌ قاد منِ أَحْـــياء دارمْ

وتكاوستْ فيها الأبـــــا رقُ وهي فاهقـــةُ الحَلاقمْ

ولفظة (اللقيط) واضحة الدلالة لما تحمله من معنى غير مقبول في المجتمعات وخاصة المجتمع العربي ، فهي تدل على نبذ الشخص والابتعاد عنه وعدم مخالطته وهذا يدفعه الى الغربة والاغتراب ، فقد شبه ابن شُهيد اغتراب ذاته باغتراب اللقيط.

تعمّق شعور الاغتراب عند ابن شُهيد بعد انكشاف حقيقة بعض الاصدقاء ، فقد تحول كثير من أصدقائهِ إلى أعداء له كأمثال ابن الحناط ، والأفليلي ، وغيرهما ،

فهذهِ حقيقة مرّة عاشها شاعرنا، قال ابن شُهيد على لسان تابعتي الجاحظ وعبد الحميد: (٣١)

"وقد بلغَنَا أنّك لاتُجازى في أبناء جنسك ، ولايُملُّ من الطّعْن عليك ، والاعتراض لك فمنْ أشدُّهم عليك ؟ قلت: جارانِ دارُهما صَقَب ، وثالثٌ نابته نُوَب ، فامتطى ظهْرَ النَّوى ، وألقتْ به في سَرَقُسطة العصا. فقالا: إلى أبي محمدٍ تُشير ، وأبي القاسم وأبي بَكر ؟ قلت: اجل . قالا : اين بلغتَ فيهم؟ قلت: أمّا أبومُحمدٍ فانتضى عليَّ لسانه عندَ المستعين ، وساعدتْه زرافةٌ استَهْواها من الحاسدين.... وأمّا أبو بكْرٍ فأقْصَر ، واقتَصَر على قوله : له تابعةٌ تُؤيّدهُ . وأمّا أبو القاسم الإفليلي فمكانه من نفسي مكين ، وحُبّه بفُؤادي دخيل ، على أنّه حاملٌ عليَّ ، ومنتسب إليَّ"

ويشير ابن شُهيد الى صديق اخر خذله أشد الخذلان جاء ذلك في رسالة ارسلها إلى أبي القاسم الإفليلي يشكو فيها تغيره عليه ، ويرجع ذلك إلى شخص اخر وهو جعفر بن محمد ابن فتح، فيقول: "فبحثت عمن طرأ عليك من الأنذال ، وحلّ بساحتك من الأعلاج ، فقيل لي : ابن فتح ، فأنعمتُ البحث ، وأعملت الطائف الكشف ، حتى صح عندي أنّه كدّر صفوك عليَّ ، وغيرّ شِرْبك لديّ ، فقلت من هاهنا أُتينا ، ومن هذهِ القوس اللئيمة رُمينا ، وقصصي مع هذا العلج طويل" (٣٢)

يوثق هذا النص عاطفة ابن شُهيد ، ومدى حبه لأصدقائه مهما بدر منهم ، فهو يحاول التمسك بهم والتماس العذر لهم في زلاتهم .

وهناك من حاول تشويه سمعة ابن شُهيد عند الخلفاء ومنهم ابن الفرضي الذي يشير إلى افعاله ابن شُهيد قائلاً : " ثم أشتدت وطأة هذا الخبيث أيام المستظهر فلم يبق غاية من أهتضامي إلا امتد لها وأجرى نحوها وقصرت به الأقدار دونها" (٣٣)

أما ابن الحناط " فكانت مناظراته ومناقشاته ومخاصماته مع ابن شُهيد شديدة اللهجة عنيفة ، لتضادّ أخلاقهما وأنسابها وتناقض آرائهما في البيان" (٣٥)

هكذا كان شاعرنا يعيش وسط زمرة من الحاسدين والحاقدين جعله يعيش حياة قلقة مخيفة ، فهذهِ النصوص توثق إحساسه بالاغتراب النفسي داخل بلدهِ وبين جماعات تتدعي المحبة والصداقة.

تعد تجربة السجن عند ابن شُهيد أنموذجاً واضحاً على الدوافع الاجتماعية لاغتراب الذات عنده ، وذلك أنَّ هذهِ التجربة جسدت القهر السياسي والاجتماعي معاً عندهُ ، فقد وقع ضحية الوشايات عند الأمير علي بن حمود بسبب ماأثير حوله من شبهات بالمجون في شعرهِ، فكانت تجربة السجن هذهِ من اقسا تجاربه التي مرَّ بها فتركت أثاراً نفسياً في ذاته ، لذلك افتتح قصيدته بالدخول مباشرةً إلى موضوعه دون مقدمة ، وهذا يدل على ماتكابده الذات من حرقة وألم مستغربة لما يصدر من هؤلاء من أفعالٍ قد تجعلها تعاني الاغتراب ، فذكر هؤلاء الواشين والحاسدين الذين افسدوا عليه ، يقول: (٣٥)

قريبٌ بمُحتلّ الـــهوانِ بعـيدُ ... يجودُ ويَشكُو حُزْنَهُ فيجيـدُ
نَعَى ضرَّه عند الإمـــام فياله ... عدوٌّ لأبناءِ الكرامِ حسُـودُ
وماضـــرَّه إلاَّ مُزاحٌ ورقَّـةٌ ... ثَنتْهُ سفيه الذِّكرِ وهو رشيدُ
جَنَى ماجَنَى في قُبَّة الماءِ غيرهُ ... وطُوّقَ منه بالعظيمةِ جـيدُ

ثم انتقل ليفسر ما اتهُم به ويبرر موقفه ويبين أنَّ الشعر هو المنقذ الوحيد الذي يتنفس فيه ، يقول:

ومافيَّ إلاَّ الشّعْرِ أثبتهُ الـــهوى ... فســـار به في العالمين فريـدُ
أَفُوهُ بما لم آته مُتَعَرّضـــــاً ... لحُسْـــنِ المعاني تارةً فأزيـدُ
فإنْ طال ذكري بالمجونِ فإنـــني ... شقـــيٌّ بمنظومِ الكلام سعيدُ
وهل كُنتُ في العُشَّاقِ أَوّل عاشقٍ ... هوتْ بحـــجاهُ أعينٌ وخُدودُ
وإنْ طال ذِكْرى بالمجُونِ فإنَّـــها ... عظـــائمُ لم يصْبرْ لهُنَّ جليدُ

وفي ظلمة السجن تنطلق الذات لتصور مايختلج داخلها من مشاعر الحزن والقلق والاغتراب، فيقول:

فراقٌ وسجنٌ واشتياقٌ وذلَّةُ وجبَّارُ حُفَّـــاظٍ عليّ عتيدُ
فمن مُبلغُ الفتيان أنّي بعدهُـم مقيمٌ بدار الظـــالمين طريدُ
مقيمٌ بدارٍ ساكنوها من الأذى قيامٌ على جمْر الحمام قُعودُ

إنَّ المتأمل في هذهِ الأبيات سيشعر بأنَّ هناك نبضات حية تجيش في صدره فقوله (فراقٌ وسجنٌ واشتياقٌ وذلَّةٌ) هذهِ الالفاظ المليئة بالحزن والالم كأنّما تتراقص داخل ذاته محدثة نغمة حائرة تتسابق لتصور لنا معالم الاغتراب لديه.

والشدة ما تحمله هذهِ الابيات من مشاعر الحزن والالم ، فأنها أثارت عاطفة تابعة ابي نواس "فبكى لها طويلاً" (٣٦)

ثمَّ انعطف ليصور ما يدور داخل جدران السجن فـ " السجن او المعتقل ذلك المكان الذي عندما نذكره نتذكر معه كل ما تمتقه وتتألم منه النفس من ذل وعبودية وظلم وظلام وتعذيب وقيود ثقيلة وما تسببه من آلام ، نذكر ضيق المكان وشرار الناس وحثالة المجتمع ، نذكر معه الثائمين عليه غلاظ القلوب قساة النفوس الذين يتسمون بالفضاضة وانعدام الرحمه ، نذكر معه الأحزان والآلالم والدموع والحسرات " (٣٧)

وكل هذهِ الاشياء بما تحمله من معاني حزينة قد مرّت بها ذات ابن شُهيد وهو في السجن ، يقول:

وما آهتزَّ بابُ السّجْنِ إلاَّ تفطَّرتْ قُلُوبٌ لنا خوْف الرَّدى وكبـــودُ
ولستُ بذي قيدٍ يرقُّ وإنَّمـــــا على اللّحظ مِن سُخطِ الإمام قيودُ

ثم يُجري حواراً بينه وبين حمامة ناحت بقرب السجن ليعبر عما يكمن في قلبه ، يقول:

وقُلتُ لصدَّاح الحمام وقد بـــكى على القصر إلفاً والدُّموع تجودُ
ألا أيُّها الباكي على من تحـــبُّهُ كِلانا مُعنًّى بالـــــخلاءِ فريدُ
وهل أنْت دانٍ من محبّ نأى به عن الإلفِ سلطـانٌ عليه شديدُ

فتتجول الذات في صفحة من صفحات حياته فيتذكر احبابه وما حال بينه وبينهم من فراق فهو يشعر بالوحدة فتزدحم مشاعر الاغتراب في ذاته فأصبح كالبركان يغلي فبكى وبكت معه جدران السجن و يقول:

وما زال يُبْكيني وأُبكيهِ جـــــاهداً وللشَّوْقِ مِن دُونِ الضّـــُلوُع وقُودُ
إلى أن بكى الجُدْرانُ من طول شجونا وأجْهشَ بابٌ جـــــانباهُ حـــــديدُ

ثم يعود ليلقي بلومه على الدهر والأيام ، فيقول:

ألا إنَّها الأيامُ تَلعبُ بالفـــتى نُحُوسٌ تهادى تارةً وسُعُودُ
وماكُنتُ ذا أَيدٍ فيذعِنَ ذُو قُوًى مِن الدَّهرِ مُبْدٍ صرفهُ ومعيدُ

نتلمس وراء هذهِ الابيات التي كتبها وهو بين جدران السجن خيوط من الاغتراب قد نسجت في ذاته المكتضة بمشاعر من الحزن والألم ومشاعر من القلق والتشرد أضافة لمشاعر الشوق والحنين إلى الأهل والأحباب ، فكلها قد اختلطت لتخط لنا ماعاناهُ ابن شُهيد وهو في السجن ، فكانت هذهِ القصيدة من أهم القصائد التي عبر فيها ابن شُهيد عن تجربته بكل صدق وإبداع ، فكانت تجربة السجن والاغتراب الإيجابي دافعين لهذا الإبداع الشعري عند ابن شُهيد.

تتضح ممّا تقدم دوافع الاغتراب عند ابن شُهيد على المستوى الشخصي والاجتماعي ، فهي دوافع فرضت على الذات المنتمية غلى محيطها الإنساني شعوراً بالاغتراب جعلها تعيش حالة من التوتر والترقب الحذر والتشاؤم لما ستكون عليه في الحاضر والمستقبل بعد ماضي مجيد ملؤُهُ السعد والعز والفرح والتفاؤل.

الخاتمة :

عاشت ذات ابن شُهيد حالة من الاغتراب بفعل عوامل شخصية تعود إلى مرضه الخطير الذي اقعده عن الحركة ، إلى اصابته بعاهة الصمم التي حرمته من تسنّم منصب الوزارة ، وإلى التحول الخطير في حياته بعد أن فقد مجد آبائه بسبب افول نجم الدولة العامرية ، وهناك دوافع اجتماعية لاغتراب ابن شُهيد وفي مقدمتها موقف اصدقائه الذين تنكّروا لصداقته ، فضلاً عن كثرة حُسّاده بسبب المكانة الأدبية التي وصل اليها ابن شُهيد .

إنَّ رضوخ الذات لدوافع اغترابها الشخصي والاجتماعي جعلها تعيش حالة من الخوف والترقب لمستقبل مجهول جعل صاحبها - ابن شُهيد - يعيش شعوراً متواصلاً من الرهبة والتشاؤم.

قائمة المصادر والمراجع

اولاً: المصادر والمراجع :

- ابن شُهيد الأندلسي ، حياته وآثاره، شارل بلا ، الطابعون ، جمعية عمال المطابع ، كلية الآداب ، الجامعة الاردنية ، عمان ، ١٩٦٥.
- الاغتراب سيرة مصطلح ، د.محمود رجب ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ع ، ١٩٩٣م.
- الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ، عزيز السيد جاسم ، دار الأندلس، لبنان- بيروت.
- ديوان ابن شُهيد الأندلسي ، جمعه وحققه يعقوب زكي ، راجعه د.محمود علي مكي ، دار الكتاب العربي ، القاهرة.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني ، تحقيق د.احسان عباس، القسم الأول ، ج١، ط١، دار الغرب الاسلامي، بيروت – لبنان، ٢٠٠٠م.
- رسالة التوابع والزوابع لابن شُهيد الأندلسي ، تحقيق بطرس البستاني ، دار صادر، بيروت، ١٣٨٧هـ ، ١٩٦٧م.
- سيكولوجيا القهر والإبداع ، د.ماجد موريس إبراهيم ، دار الفارابي- لبنان –بيروت، ط ١ ، ١٩٩٩م.

ثانياً: الرسائل والاطاريح الجامعية

- الاغتراب في حياة ابن درّاج وشعره، روضه بن بلال بن عمر المولد ، غشراف د.مصطفى عبد الواحد ، رسالة ماجستير ، كلية اللغة العربية وآدبها ، جامعة أم القرى ، ١٤٣٨ هـ - ٢٠٠٧م.
- شخصيات كاتب ياسين بين الانتماء والاغتراب ، مسرحية " الجنة المطوقة" أنموذجاً ، هني كريمة ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب واللغات والفنون ، جامعة السانيا – وهران ، ٢٠١١-٢٠١٢ م.
- العجائبية وتشكلها السردي في رسالة التوابع والزوابع لابن شُهيد الأندلسي ومنامات ركن الدين الوهراني ، فاطمة الزهراء عطية ، اشراف د. علي عالية ، اطروحة دكتوراه ، كلية الآداب واللغات ، جامعة محمد خيضر- بسكرة، ٢٠١٤-٢٠١٥ م.

ثالثاً: الدوريات

- جماليات الجسد (البدن) للذات والأخ في الشعر الأندلسي عصرا الخلافة والطوائف أنموذجاً ، د.محمد عيد الطربولي ، مجلة جامعة الانبار ، ع ٦ ، السنة ٣، ٢٠١٢م.

رابعاً: شبكة المعلومات الدولية

معاني شعر السجون في الأدب الأندلسي إلى نهاية عصر الطوائف ، يونس هاشم مجيد.

هوامش البحث :

(١) ينظر : الاغتراب سيرة مصطلح ، د.محمود رجب ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ع ، ١٩٩٣م :٣٥.

(٢) ينظر: الاغتراب في حياة ابن درّاج وشعره، روضه بن بلال بن عمر المولد ، غشراف د.مصطفى عبد الواحد ، رسالة ماجستير ، كلية اللغة العربية وآدبها ، جامعة أم القرى ، ١٤٣٨ هـ - ٢٠٠٧ م :١٦.

(٣) ينظر: سيكولوجيا القهر والإبداع ، د.ماجد موريس إبراهيم ، دار الفارابي- لبنان – بيروت، ط ١ ، ١٩٩٩م :١٧.

(٤) ينظر: شخصيات كاتب ياسين بين الانتماء والاغتراب ، مسرحية " الجنة المطوقة" أنموذجاً ، هني كريمة ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب واللغات والفنون ، جامعة السانيا – وهران ، ٢٠١١-٢٠١٢ م :٣٢.

(٥) ينظر: المصدر نفسه:٥.

(٦) ينظر: المصدر نفسه:٢٩.

(٧) ديوان ابن شُهيد الأندلسي ، جمعه وحققه يعقوب زكي ، راجعه د.محمود علي مكي ، دار الكتاب العربي ، القاهرة :١٦.

(٨) ينظر : جماليات الجسد (البدن) للذات والأخ في الشعر الأندلسي عصرا الخلافة والطوائف أنموذجاً ، د.محمد عقيد الطربولي ، مجلة جامعة الانبار ، ع ٦ ، السنة ٣، ٢٠١٢م : ١٣٧.

(٩) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني ، تحقيق د.احسان عباس، القسم الأول ، ج١، ط١، دار الغرب الاسلامي، بيروت – لبنان، ٢٠٠٠م :١٩١.

(١٠) رسالة التوابع والزوابع لابن شُهيد الأندلسي ، تحقيق بطرس البستاني ، دار صادر، بيروت، ١٣٨٧هـ ، ١٩٦٧م :١١٨.

(١١) ينظر: العجائبية وتشكلها السردي في رسالة التوابع والزوابع لابن شُهيد الأندلسي ومنامات ركن الدين الوهراني ، فاطمة الزهراء عطية ، اشراف د. علي عالية ،

اطروحة دكتوراه ، كلية الآداب واللغات ، جامعة محمد خيضر- بسكرة، ٢٠١٤-٢٠١٥ م :٦١.

(١٢) التوابع والزوابع :١٣٤.

(١٣) ديوان ابن شُهيد الأندلسي :١٤٥.

(١٤) المصدر نفسه :١١٣.

(١٥) المصدر نفسه :١٤٥.

(١٦) المصدر نفسه : ١١٣.

(١٧) المصدر نفسه :١٧٣ .

(١٨) المصدر نفسه : ١٧٣.

(١٩) المصدر نفسه : ١٣٦.

(٢٠) ينظر: ابن شُهيد الأندلسي ، حياته وآثاره، شارل بلا ، الطابعون ، جمعية عمال المطابع ، كلية الآداب ، الجامعة الاردنية ، عمان ، ١٩٦٥ :٤٣.

(٢١) ديوان ابن شُهيد الأندلسي : ١٥٣.

(٢٢) ينظر : الاغتراب في حياة ابن درّاج وشعره: ١٤٨.

(٢٣) ديوان ابن شُهيد الأندلسي : ١٠٤.

(٢٤) ينظر : الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ، عزيز السيد جاسم ، دار الأندلس، لبنان- بيروت :٨١.

(٢٥) ديوان ابن شُهيد الأندلسي : ١١٤.

(٢٦) المصدر نفسه :٩٨.

(٢٧) ينظر الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي:٨٢.

(٢٨) التوابع والزوابع :١٤٩.

(٢٩) ديوان ابن شُهيد الأندلسي : ١٥١.

(٣٠) المصدر نفسه: ١٥٦.

(٣١) التوابع والزوابع : ١٢٢-١٢٣.

(٣٢) المصدر نفسه: ٣٠.

(٣٣) الذخيرة ، ف١ ، ج١ :١٧٨.

(٣٤) ابن شُهيد الأندلسي ، حياته وآثاره :٦٤.

(٣٥) ديوان ابن شُهيد الأندلسي : ٩٩-١٠١.

(٣٦) التوابع والزوابع :١١٠.

(٣٧) معاني شعر السجون في الأدب الأندلسي إلى نهاية عصر الطوائف ، يونس هاشم مجيد:٧٣٢-٧٣٣

The Motives Of Self-Alienation In Literature's
Abn Shahid Alaindilsi

Abstract

Alienation is a psychological feeling inherent to man, which appears if he has reasons and factors. When the self collides with a reality that is not suitable for her life and desires or contradicts what she wants to reach, she feels sadness and pain, which brings her to loneliness and alienation.

Therefore, the alienation was part of the life of Ibn Shahid because of personal motives represented by the deafness and blackness of his skin, his illness, and other social problems, which were the result of the many imams around him and the experience of the prison he passed through.